تعيشي يا ضحكة مصر

علي خط النار، عالمٌ أخر، عالمٌ غير تلك العوالم التي تعرفونها، أُناس ليسوا هم من عايشناهم من قبل، منهم أخي وجاري وابني وصاحبي وأستاذي، إلا إنهم يوم بعد يوم، يتحولون، يتغيرون، يدركون أنهم يعيشون واقع لا ندركه، فقط نتابع أخبارهم عبر الأثير، نتدثر أغطية برد الشتاء، أو نروي ظمأ حر الصيف بالمثلجات، ثم نتغنى برائعة الشاعر أحمد فؤاد نجم والموسيقار كمال الطويل: «دولا مين ودولا مين دولا عساكر مصريين».

منذ سنوات ليست بالبعيدة، وأثناء تواجدي بأحد مراكز التدريب العسكري بالقاهرة، انتظر أخي الذي أصبح جندي مجند بالقوات المسلحة، هالني ما رأيت، شباب صغير، ينطلق إلينا بزيه المموه، زادتهم سمرة شمس يوليو الحارقة صلابة الفراعين الأولين، تعلو وجوههم المشرقة بسمة لم تفارق شفاههم، بريق عيونهم الجذلة تشعرك أنهم ما عانوا مشقة قط، اقبلوا فرحين، ليس للقاء الأهل والأقارب، ولكن لاستقبال ما لذ وطاب، حتي أخي، كفهد جائع انقض علي ما نحمله من طعام وكأنه صيد ثمين.

«هتعشي اية ليلة الدخلة يابا الحج».. بمجرد أن هدأ دخان المعركة، لم ينتظر «مسعد أبو المعاطي»، ذلك النجار الصغير الذي جاء من بحري ليدافع عن تراب وطنه طويلاً، بأنفاس مشبعة برمال سيناء، وبصوت مازح لم يخلو من الجدية أطلق الفتي ذاك التساؤل، راجياً قائده أن يُخرجه من تلك الورطة، فلم يجد الشاويش «محمد» سوي كتم ضحكة كادت أن تفلت منه، أطلت من «مسعد» نظرة طفل سُلب لعبته المفضلة، «متهيألي يا مسعد الفراخ ظريفة»، أخرجت إجابة «شوقي» رفيق السلاح الفتي من تلك الحالة الغاضبة، فعادت إلي وجهة تلك الابتسامة الطيبة قائلاً بصوت خبيث: «لالالا فراخ اية يا عم شوقي.. دا فيه ناس قالت لي إن السمك كويس أوي في ليلة مفترجة زى دي».....

منذ خمسة وأربعون عاماً قدم لنا الثنائي العبقري، الكاتب والسيناريست مصطفي محرم، والمخرج علي عبد الخالق، واحدة من أروع الأعمال السينمائية في التاريخ المصري، «أغنية علي الممر»، إحدي مسرحيات الكاتب العظيم علي سالم، ليصنعوا أعظم مشاهد البطولة للجندي المصري، ومدي كفاحه عقب نكسة لم يشاركوا فيها، البطولة هنا لم تكن في الصمود والحفاظ علي الموقع من السيطرة الإسرائيلية، ولكنها في الجانب الإنساني للمواطن المصري، فخرجت الصورة بتلك الواقعية التي جسدها أبطال من طين هذه البلد.

«نفسي يبقي عندي بيت صغير.. وعيلين.. وبطانيتين صوف.. وأدفي بقي».. لم ينس «مسعد»، والذي برع في أداء دورة الفنان العظيم صلاح السعدنى، تلك اللحظة الرومانسية مع حبيبته التي تركها ليدافع عن وطنه، كصقر راح يراقب الممر من أعلي الحصن، وكإنسان راح يتذكر حب العمر، يستأنس بها وحشة الصحراء القاحلة، يحلم باللحظة التي سيعود إليها ليحقق ذلك الأمل الذي وعدها به، «بيت صغير، وعيلين، وفوقهم بطنيتين صوف، ويدفى بقي ابن المحظوظة»، حقا هو حُلم بسيط، لكنه بالنسبة له كان أمل عظيم، بمجرد أن تضع الحرب أوزارها سيعود إلي قريته ليحققه.

المشكلة التي كانت دائماً ما تؤرق الجندي مجند مسعد، ولم يجد لها حل، «هيتشعى اية ليلة الدخلة»، لا تتعجبوا فقد كانت تلك هي كل مشاكل هذا الفتي الصغير، وفقاً لرؤيته فليلة مفترجة كتلك يجب أن يكون لها طقوس خاصة، وإلا ضاعت بركاتها، ويفشل في تحقيق حلم «العيلين»، وبدل ما يشتري بطنيتين يوفر بطنيه، ضاحكاً، تذكر موقف تلك الحبيبة تعيسة الحظ، وكيف أنها أصرت آلا يذهب إلي الجبهة قبل أن يكتب عليها، «تقولش لقت لقية»، لكن تظل المشكلة، لقد انتهي من كل شيء، حتي فرش البيت الصغير صنعه علي يده، وقامت حبيبته بتفصيل الستائر، لكن ما يحير هذا الصغير، «هيتعشي اية ليلة الدخلة».

هـل تذكـرون زيارتـي لأخـي بتلـك الوحـدة العسـكرية، يومهـا تذكرت مقولـه والـدي رحمـة الله عليـة، «يـا بنـي الحيـاة علـي الجبهـة شـيء أخـر.. المـوت هنـاك هـو القاعـدة ومـا عـدا ذلـك اسـتثناء»، تلـك اللحظـة فقـط، أدركـت السـبب الحقيقـي لتلـك الحالـة التـي ظهـر عليهـا شـباب ظلـوا ٤٥ يـوم وسـط الصحـراء، نفـس الوجـه البشـوش، نفـس الضحكـة الجذلـة، حتـي بريـق العـين، لا يختلـف كثيـراً عـن «مسـعد» في أغنيـة علـي الممـر، كان لديهـم نفـس الحلـم، فانقضـوا علـي مـا نحملـه مـن طعـام.

«أنـا راجـع.. مسـعد أبـو المعاطـي ميموتـش أبـداً.. بشـريفي لنعمـل حتـة ديـن دخلـة محصلتـش».. أعلـي التبـة أمسـك سـلاحه العتيـق متحفـزاً، جـف حلقـة، تشـققت شـفتيه، طيلـة يومـين كاملـين لـم يدخـل جوفـه شـربه مـاء، علـي يمينـه انهمـك حمـدي في تلحـين قصيـدة النصـر، بـين الفينـة والأخـرى يطلـق صفيـراً معبـراً عـن فقـرة أو حتـي جملـة، فتذكـر وعـده لحبيبتـه عـن «الدخلـة اللـي محصلتـش»، ابتلـع ريقـه بصعوبـة كادت تجـرح أمعائـه، ثـم التفـت إلـي رفيـق سـلاحه مازحـاً: «بشـريفي يـا حمـدي لتحـي الفـرح بتاعـي»، كالعـادة يطلـق الجميـع العنـان لضحـكات بائسـة لدعابـة ذلـك الفتـي.

انتبـه مسـعد فجـأة إلـي ذاك الصـوت المعدنـي، مُعتدي إسـرائيلي، يُطلـق تحذيـره بسـرعة تسـليم الموقـع وإلا سينسـفونه، كان بين خيارين

كلاهما أحب إلي نفسه من روحه، بين أن يُخرس ذلك المُحتل إلي الأبد ويخسر حياته، وبين أن يفي بوعده لحبيبته ويخسر وطنه، لم يطل الإنتظار، فقد أدرك أن وطن ضائع لا يمكن معه الحلم بالبيت الصغير، ولا بالعيلين، ولا بالبطانيتين، وطن ضائع لا يعني علي الإطلاق دفء، فانطلق صوب صاحب التهديد ليخرسه إلي الأبد، وقبل أن يحتفل بنصره جاءته رصاصة الغدر ليقضي نحبه.

مات مسعد أبو المعاطي، مات قبل أن يجيبه احد من الباقين، هيتعشي إيه ليلة الدخلة، تلك الليلة المفترجة التي يحلم بها سنين عددا، صعدت روحة إلي السماء دون أن يحقق حلمه، سكنت أنفاسه إلي الأبد، تلاشت ضحكته التي اشتهر بها بين اقرنائه، ضاعت ضحكته وبقيت ضحكة حبيبته، ولأنه ذلك الفتي الشقي، لم يكن صعوده إلي السماء كأي صعود لشهيد من قبل، راح يرقص ويتغني بأنشودة الخال عبد الرحمن الأبنودي، «أبكي.. أنزف.. أموت.. وتعيشي يا ضحكة مصر.. وتعيش يا نيل يا طيب.. وتعيش يا نسيم العصر.. وتعيش يا قمر المغرب.. وتعيش يا شجر التوت.. أبكي أنزف أموت وتعيشي يا ضحكة مصر».

●●●